العرب
الأحد 2020/04/19
السنة 42 العدد 11682

سقوط ترامب لا يمكن أن يكون رهانا إيرانيا

شباب عراقي عصي عن الترويض الإيراني

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

لم يعد سرّا، إلّا بالنسبة إلى الذين يعتقدون أن في الإمكان تغطية نور الشمس بغربال، أن النظام الإيراني يفقد أوراقه الواحدة تلو الأخرى. ما شهده العراق أخيرا يعطي فكرة عن ذلك. لم يعد لإيران سوى حق الفيتو في العراق بعدما كانت تقرّر من هو رئيس الوزراء العراقي، أي الرجل الذي يمسك بمعظم مفاصل السلطة في البلد استنادا إلى الدستور الذي يتحكّم، أقلّه شكلا، بالنظام الذي قام بعد العام 2003.

إلى ما قبل فترة قصيرة، كانت إيران صاحبة القرار في العراق، خصوصا منذ استطاعت فرض نوري المالكي رئيسا للوزراء ومنعت إيّاد علاّوي من أن يكون في هذا الموقع في العام 2010. كان المالكي رئيسا للوزراء، منذ 2006، لكنّ الذي حصل في انتخابات 2010 أن القائمة المدعومة عربيّا والتي كانت برئاسة إيّاد علاّوي حصلت على أكبر عدد من النوّاب.

كان ذلك كافيا كي يكلّف رئيس الجمهورية الكردي جلال الطالباني علاّوي بتشكيل الحكومة. رفضت إيران

ما لا تدركه إيران أنّ الأيّام التي كانت تنفق فيها مئات ملايين الدولارات على ميليشياتها في المنطقة ولّت. تكمن مشكلة إيران مع العراق في أنّها مرفوضة عراقيا

ذلك وفرضت المالكي رئيسا للوزراء بما يخالف الدستور. استطاعت ذلك بالتفاهم المباشر مع إدارة باراك أوباما التي كانت مستعدّة لتسليم كل أوراقها العراقية إلى إيران استكمالا لما تحقّق جزئيا في 2003 عندما أسقطت إدارة جورج بوش الابن النظام، لكنّها أصرّت على أن يكون لديها حضور في العراق. ما لبثت إدارة أوباما أن سحبت الجيش الأميركي من العراق في 2011!

في السنة 2020، صار أقصى ما تستطيع إيران عمله في العراق هو الاعتراض على عدنان الزرفي ومنعه من أن يكون رئيسا للوزراء. الأكيد أن مصطفى الكاظمي المكلّف بتشكيل الحكومة الجديدة ليس خيارا إيرانيا. كلّ ما يمكن قوله إنّ لا فيتو إيرانيا عليه. يشكل اختياره لشغل هذا الموقع تطورا في غاية الأهمّية نظرا إلى أنّه يعكس التوازنات الجديدة ليس في العراق فحسب، بل في المنطقة كلّها أيضا.

يوما بعد يوم، يتبيّن كم أن الضربة التي تلقتها إيران مطلع هذه السنة كانت قوية. في الثالث من كانون الثاني – يناير الماضي، استطاعت الولايات المتحدة تصفية قاسم سليماني قائد "فيلق القدس" في "الحرس الثوري" الإيراني.

مع مرور مئة يوم على هذه العملية التي نفذتها وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية (سي. آي. إي) بواسطة طائرة من دون طيّار، بات في الإمكان الحديث عن الخسارة التي لا تعوّض للنظام الإيراني. لا يوجد في إيران شخص آخر يستطيع الحلول مكان سليماني. أكثر من ذلك، إنّ عملية اغتيال قائد "فيلق القدس" مليئة بالرموز.

في مقدّم هذه الرموز المكان الذي قتل فيه القائد العسكري والسياسي الإيراني. كان سليماني الذي اغتيل بعيد مغادرته مطار بغداد آتيا من دمشق، التي كان قبلها في بيروت، قائدا عسكريا وسياسيا. كان الوحيد القادر على جمع العراقيين من ذوي الهوى الإيراني تحت راية "الجمهورية الإسلامية" التي أسّسها آية الله الخميني والتي يديرها حاليا علي خامنئي بصفة كونه "المرشد". لا يمكن الاستخفاف في الوقت ذاته بالشخص الآخر الذي استهدفته الغارة الأميركية. ظهر بوضوح أن أبومهدي المهندس الذي قضى مع سليماني كان شخصية محورية في العراق وليس مجرّد نائب لقائد "الحشد الشعبي" العراقي، الذي يتكوّن من مجموعة ميليشيات مذهبية في خدمة المشروع التوسّعي الإيراني لا أكثر.

يشكّل العراق نموذجا لما آل إليه المشروع الإيراني في ظلّ حال الإفلاس التي تعاني منها "الجمهورية الإسلامية" على كلّ المستويات. فحتّى لو شاء مصطفى الكاظمي أن يكون نسخة عن نوري المالكي، لن يتمكّن من أن يكون كذلك في ظلّ المعطيات الجديدة التي تفرض نفسها على إيران مثلما تفرض نفسها على العراق.

تفسّر هذه المعطيات، التي ولدت من رحم العقوبات الأميركية على إيران ومن هبوط سعر برميل النفط ومن انتشار وباء كورونا، التغييرات الكبيرة التي تبدو أن المنطقة مقبلة عليها. غدا أو بعد غد أو بعد شهر أو شهرين، أو لنقل سنة، سينتصر العالم في الحرب على كورونا. ما الذي ستفعله دولة مثل إيران لم تعدّ نفسها لمرحلة تهبط فيها أسعار النفط والغاز إلى هذا الحدّ؟

ما لم تعد إيران نفسها له، كذلك العراق، هو إقامة نظام عصري قابل للحياة. فما يجمع بين إيران والعراق ليس المذهبية وليست "ولاية الفقيه". ما يجمع بينهما هو أنّهما بلدان يمتلكان ثروات كبيرة غير النفط والغاز. المرعب أنّ اقتصاد العراق يعتمد على النفط بنسبة تسعين في المئة، فيما كان الفشل الإيراني كبيرا على كلّ صعيد. يكفي للتأكّد من هذا الفشل أن كلّ الشعارات التي رفعتها "الجمهورية الإسلامية" عن الاستغناء عن مدخول النفط بقيت شعارات. بعد 41 عاما من قيام النظام الجديد في إيران، تعتمد "الجمهورية الإسلامية" أكثر من أيّ وقت على النفط والغاز. لذلك، عرفت إدارة دونالد ترامب أين المكان الذي عليها الضغط عليه والذي يؤلم إيران أكثر من غيره.

لم يبق أمام إيران سوى رهان واحد هو الرهان على سقوط ترامب في الانتخابات الرئاسية في تشرين الثاني – نوفمبر المقبل. ماذا إذا سقط ترامب وفاز جو بايدن، هل يكون ذلك كافيا للعودة إلى السياسة الأميركية التي اعتمدت في عهد باراك أوباما الذي فرّق بين ممارسات إيران خارج حدودها وبين ممارسات "داعش" من زاوية أن الإرهاب سنّي وهو محصور بالسنّة.

ما لا تدركه إيران أنّ الأيّام التي كانت تنفق فيها مئات ملايين الدولارات على ميليشياتها في المنطقة ولّت. تكمن مشكلة إيران مع العراق في أنّها مرفوضة عراقيا، مرفوضة من معظم الشيعة أكثر مما هي مرفوضة سنّيا. وهذا أمر لا يستطيع مصطفى الكاظمي إلّا أن يأخذه في الاعتبار. وفي سوريا، لم يوجد أيّ قبول لإيران التي دخلت بلدا من بوابة نظام أقلوي لم يعد قائما منذ العام 2015 لولا الدعم الروسي. أمّا في لبنان، لم تجد إيران ما تقدّمه سوى نشر البؤس والفقر اللذين يعاني منهما اللبنانيون، خصوصا في ظلّ "عهد حزب الله" و"حكومة حزب الله".

هناك مرحلة جديدة مختلفة دخلتها المنطقة. لم يعد تراجع المشروع التوسّعي الإيراني مرتبطا فقط بإدارة دونالد ترامب. إنّه مرتبط، في المدى البعيد بعوامل عدّة بينها أن سعر النفط لن يعود إلى الارتفاع سريعا. ولا يمكن بكلّ بساطة بناء مشروع توسّعي يرتكز على إثارة الغرائز المذهبية بالاعتماد على سعر برميل النفط وحده.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
حذام خريف
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk

العالم نسّاء.. ربما لأنه كثير التذكّر

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

لا يمكن للمرء أن يقلب صفحة من كتاب إلا إذا كان قد قرأها، فتحيله عندئذ، إلى ما بعدها.

هذا هو حال التاريخ: كل شيء معنون، مرقم ومجدول على شكل محاور وفصول، تسندها هوامش تحيل المتمعّن فيه إلى مراجع ومصادر وشواهد، ولكن، ماذا لو أنهى الواحد قراءة ما بين دفتي هذا الكتاب لينتقل إلى كتاب آخر، شديد الاختلاف والتفرّد في العنوان والمحتوى والأسلوب والمزاج؟

العالم اليوم أمام كتاب جديد، لا ورقيا ولا رقميا، لا شرقيا ولا غربيا.. ويبدو مربكا في أطروحاته إلى حد الغرابة والاستهجان، وذلك من حيث زوايا النظر إلى جملة قيم فكرية وأخلاقية وروحانية سوف تتحكم في البشرية طيلة أجيال قادمة.

"ما قبل كورونا ليس كما بعدها" مقولة قد تبدو مكررة بل أحيانا، ممجوجة ومستهلكة، إلى حد أنك لو وضعتها على محرك بحث مثل غوغل، تجدها وقد تصدرت آلاف المقالات والدراسات، وبمختلف اللغات والمسارب والأهواء.

الكل يدلي بدلوه في هذا السؤال الذي يبدو مغريا للواقعيين والمثاليين، للمتفائلين والمتشائمين على حد سواء، إلى درجة أنك لو طرحته على أي واحد من العامة والدهماء، أجابك فورا، وبمنتهى الثقة: طبعا.. طبعا، العالم بعد كورونا لن يكون كقبله.

أمّا عن المتخصصين من اقتصاديين وسياسيين، ومفكرين يصفون عقولهم بـ"الإستراتيجية" فسيطنبون في شد الموضوع إلى صالحهم. أنصار البيئة، مثلا، سوف يستبشرون بحالة ثقب الأوزون الذي بدأ بالتعافي، وينظرون بإيجابية إلى مشهد قطعان الأيائل والوعول التي تحتل المدن المجاورة للغابات، وكذلك أسراب الطيور والأسماك وهي في مأمن من بنادق وشباك الصيادين.

ويتنبأ المناهضون للرأسمالية –في نظر الكاتبة ماري هيلين مياوتون، في صحيفة "لو تون" السويسرية– بأن هذا النظام البغيض قد ولى إلى غير رجعة، في حين يرى الحمائيون أن الحدود سوف تُستعاد بشكل دائم، ويعتقد محبو أوروبا أن الاتحاد سوف يخرج معززا من هذه الأزمة، في حين يرى مناهضوه أنه سينفجر. ولعلّ تذمّر الحكومة الإيطالية واستياءها من شركائها الأوروبيين الذين خذلوها في محنتها، خير دليل على ذلك.

الأنظمة الصحية وصناديق الضمانات الاجتماعية سوف تتعافى، تعيد تنظيم نفسها بشكل مفيد، وتقف على أقدامها بفضل "خسائر بشرية لا بد منها" في نظر "ذوي القلوب القاسية" من المحللين الاقتصاديين الإستراتيجيين الذين يرون في كبار السن عبئا يثقل كاهل الدولة. كما أن من المؤكد أن الجائحة قد دقت نواقيس الحذر والإنذار، وجعلت دولا كانت غافلة، تفكر في تأمين استقلالها فيما يتعلق بالمنتجات الإستراتيجية، ولكن، هل يحدث هذا كله، تغييرا جذريا في النموذج الاقتصادي أو الاجتماعي أم أن الأمر مجرد خوف مبالغ فيه إزاء نظم عريقة ومبنية على نظريات راسخة أثبتت جدارتها مدة قرون من الزمن؟

القارئ للتاريخ القديم والحديث يعرف أن أوبئة كثيرة سبقت كوفيد – 19 وحصدت أرواح الملايين من البشر، لكنها لم تنجح في هز القناعات وتبديل المفاهيم إلى نقيضها، فلقد لعق الجميع جراحه بعد كل صدمة، واستمر واثقا من مستقبله متمسكا بالقناعات التي انطلق منها. قس على ذلك في الأزمات المالية، ولننظر إلى سنوات قليلة مضت، ونتوقف عند عام 2008، وتلك الأزمة التي هزّت العالم بعواقبها المالية والاجتماعية، فلقد عاد كل شيء إلى طبيعته المعتادة بل وأفضل حالا، إذ تمت رسملة البنوك وتقويتها لإكسابها مناعة أكثر.

هينري كيسنجر حذر، في مقال له، من أن العالم ما قبل كورونا ليس كما بعده، متوقعا حدوث اضطرابات سياسية واقتصادية قد تستمر لأجيال

في هذا الصدد يرى محللون أن هذه البنوك "أصبحت حذرة وتعرف كل شيء عن عملائها، ولكن النظام المالي العالمي في الواقع لم يتغير جذريا، بل صار أكثر تركيزا وأكثر أمانا.. والأبعد من ذلك كله أن الناس قد اعتادوا عليه".

مهلا.. يبدو أن المقاربات التي تقدم حيال أزمة كورونا لم تخرج من المعالجات السياسية والاقتصادية المستأنسة لأبحاث طبية لم تدخل إلى الآن في جدل خارج المخابر والتخصصات، لكن التداعيات الاجتماعية أخطر بكثير من تلك التي نلمحها في حركات الأسواق والتدابير الحكومية، إذ أن البنيان المجتمعي المتفاعل مع أي قرار إجرائي سيتبدل كليا.

ومن كان بالأمس إيجابيا مع أي خطة سياسية سوف يصبح غدا عكس ما يتوقعه السياسيون والاقتصاديون، وربما مخيبا لآمالهم وخططهم التي لم تضع في الحسبان، عقلا جديدا يتشكل، وسيتعامل مع الحياة بطريقة مختلفة.

وفي هذا الصدد، حذر وزير الخارجية الأميركي الأسبق هينري كيسنجر، في مقال له، من أن العالم ما قبل كورونا ليس كما بعده، متوقعا حدوث اضطرابات سياسية واقتصادية قد تستمر لأجيال بسبب الوباء، ملمحا إلى تفكك العقد الاجتماعي محليا ودوليا.

وأوضح الرجل، الملقب بفيلسوف السياسة الأميركية، أن "الإدارة الأميركية قامت بعمل قوي في تجنب الكارثة الفورية. وسيكون الاختبار النهائي هو ما إذا كان من الممكن إيقاف انتشار الفايروس ثم عكسه بطريقة وعلى نطاق يحافظ على ثقة الجمهور في قدرة الأميركيين على إدارة أنفسهم".

وأشار كيسنجر، إلى أن القادة يتعاملون مع الأزمة على أساس وطني إلى حد كبير، " لكن تأثيرات الفايروس التي تذوب في المجتمع لا تعترف بالحدود". هذا على مستوى الدول ذات الاقتصاد القوي والسياسة الفاعلة والمؤثرة، فما بالك بالكيانات الضعيفة والهشة؟ لا شك أن مرحلة ما بعد كورونا سوف تكون فارقة، ولكن هناك قاعدة يمكن الاطمئنان إليها وسط هذه القتامة التي بلغت حد العبثية، وهي أنه "إذا ارتعب القوي وخاف، لا بد للضعيف أن يطمئن ويرتاح".

ويمكن تدعيم هذه القاعدة بمقولة "ليس للمستضعف ما يخسره غير قيوده" فهل نتفاءل –ولا خيار لنا غير التفاؤل– في هذه الأجواء المعفرة بالخوف؟